باب الرثاء

الرثاء واحد من أهم موضوعات الشعر العربي القديم، وهو احتفاء بالميت وذكر مناقبه وصفاته الحسنة، والإشارة إلى بعض أمجاده التاريخية وأفعاله المميزة. ولم يعد موضوع الرثاء حاضرا في الشعر المعاصر بنفس الزخم الذي كان عليه في شعر العرب القدامى، وفي جيلنا ربما تقوم حفلات التأبين مقام شعر الرثاء.

في صفحة ٩١ نص لأبي نواس يرثي فيه نفسه، وهي فكرة موجودة في الشعر، حيث يتخيل الشاعر نفسه قد مات أو موشك على الموت ويقوم برثاء نفسه.

شعر أبو نواس بقرب الأجل بعد أن خارت قواه الجسدية وعجزت أعضاؤه عن الحركة وأصبح قاب قوسين أو أدني من القبر. هنا، في هذا الموقف لا ملجأ إلا إلى الله:

فيا رب قد أحسنت عودا وبدأة إليّ، فلم ينهض بإحسان الشكر

في صفحة ٩٢ أبيات لأبي تمام يرثي فيها قائدا من قواد بني العباس هو محمد بن حميد الطوسي، وهي من مشهورات ابي تمام ومن أروع نصوص الشعر العربي، وربما تكون من أشهر نصوص الرثاء في الأدب العربي.

في الرثاء تقاليد، يتبعها الشعراء من جهة الصفات التي يجب أن يذكرها الشعراء، وعلى رأسها الشجاعة والحزم وسداد الرأي والكرم والوفاء والسخاء، وتقريبا سنجد كل الصفات الإيجابية مذكورة في الرثاء، لأنه إن لم يكن الميت متحليا

بصفات جيدة وأخلاق حسنة، فسيكون موته حدثا عاديا، لا يستحق الالتفات إليه.

ولأن محمد بن حميد كان متصفا بحزمة من حسن الخلق ومكارم الفعل، يقول الشاعر: *(توفيت الآمال بعد محمد)*، فبوفاته تقل الآمال التي يتعلق بها الناس للخلاص مما هم فيه من سخافات الحياة، وتسير الأبيات الباقية في سرد هذه الصفات.

في صفحة ٩٤ أبيات للبحتري في الرثاء تدور حول نفس الأفكار العامة للرثاء، يبدا البحتري أبياته بسؤال قديم متجدد عن موقف الإنسان في الحياة ودوره فيها، حيث تجري أحكام القضاء بصورة غامضة على الإنسان، فيأتيه الخير والشر من حيث لا يحتسب، ثم يقطع حبل أفكاره وينتقل إلى رثاء الميت واسمه طاهر فيقول (لا سلف في الذاهبين

كطاهر)، ولما كان ابنه سيخلفه، أي سيتولى الأمر من بعده فقد قال (على أنه لا مرتجى كمحمد) ، ولأنها ذرية بعضها من بعض فهم تشابهوا في حسن الخلق، فالكلام يجمع بين المدح والرثاء في آن واحد، فنفس الصفات إذا تعلقت بالميت في رثاء (وهنا ميت بالفعل اسمه طاهر) وغذا انصرفت إلى الحي فهي مدح (وهنا شخص حي اسمه محمد)، لذلك يقول الشاعر (سجايا عطاء من مقيم ومقلع) والمقيم هو الحي والمقلع هو الميت، وبالمثل (ونجما ضياء من منيف وغائر) المنيف الموجود وهو محمد والغائر المختفي هو الميت وهو طاهر. وسبب هذا التداخل أن العرب امتدحت الإنسان أيما مدح إذا كانت أخلاقه الحسنة وراثة، وهذا هو الكريم أي الذي اجتمع فيه حسن الأفعال وحسن الأصل والنسب. فإذا كانت

أفعال الشخص حسنة وكذلك كان اهله السابقون ذوي أفعال حسنة فهذه قمة المدح وقمة الكرم.

وفي صفحة ٩٩ أبيات للبحتري في رثاء أبي القاسم، يبدا الشاعر الأبيات بذكر كرم الفقيد، (الذي عمت نوافله) والنوافل هنا هي العطايا والمنح التي كان يقدمها، ولفظ (عمت) هنا يفيد أن عطاياه لم تكن مقصورة على فئة أو مكان أو قوم، بل كانت تصل إلى عموم الناس، وبالتالي فإن موته سيكون خسارة لعموم الناس وسيشعر عموم الناس بمحنة فقده. وباقي الأبيات تسترسل في الحديث عن وقعة فجيعة الموت على مسامع الذين تلقوا خبر الوفاة وأثر ذلك على السامعين.

وفي صفحة ١٠١ أبيات في رثاء محمد بن عبد الله بن طاهر للشاعر العباسي المعروف ابن الرومي. يقول

الشاعر إن الناس أمام الموت متساوون، فالمنية وهي الموت لا تبقي على أحد، ولا تهاب أي تخاف أي أحد سواء أكان ذا قوم لهم عدد حاشد، أو كان وحيدا لا ناصر له، وهذا معنى الشطر الثاني.

ولأن الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر من قبيلة كبيرة لهم عدد وافر هذا من جهة، ومن جهة ثانية هو محارب وقائد ومحاط بجنود لا عد لهم، ومع ذلك أتته المنية وحلت به مصيبة الموت، فلم يعصمه من الموت عدد وافر يحوطه كما يحوط الليل الناس، كناية عن كثرتهم وعددهم.

هذا الأمير أتته وهو في كنف كالليل من عدد ما شئت أو عدد

وكان جنوده محاربين متمكنين في فنون الحرب، وهو أيضا كان محاربا من طراز فريد، ومع ذلك لم يمنعه هذا من الموت.

في صفحة ١٠٢ أبيات لابن الرومي في رثاء عبد الله بن إسحاق. ورأي ابن الرومي في الحياة سيء، فيراها حربا بين البشر والزمن، فالأيام والليالي تمكر بنا أيما مكر، حتى تواتيها الفرصة فتقتلنا:

إن الليالي والأيام قد كشفت من كيدها كل مستور ومكنون

ونحن نعلم ذلك، لأنها حرب معلنة، فإن هذه الأيام والليالي *(خبرتنا بأنا من فرائسها)*. والأيام والليالي هي الدهر وهي الزمن، ويتخيل مؤامرة شعرية يدبرها الدهر والدنيا مجتمعين ضد بني الإنسان. وعلى سبيل الاستعارة يتخيل الدهر أبا والليالي أنا وتمضي الأبيات في بيان سوء معاملة هذين الوالين لأبنائهما.

في صفحة ١٠٦ أبيات للمتنبي يعزي بها عضد الدولة في وفاة عمته، وهذه الأبيات ضمن نص شهير للمتنبي معدود من عيون شعر الرثاء العربي.

يرى المتنبي في هذه الأبيات أن حدث الموت أمر لا بد منه (لا بد للإنسان من ضجعة) أي الموت، تتركه في وضع المستكين المسالم *(لا تقلب المضجع عن جنبه)* وهذه حقيقة فلا يستطيع الميت أن ينقلب عن جنبه، أو الإتيان بأي حركة مهما كانت.

والإنسان يكره الموت ويفر منه،لكنه القدر المحتوم الذي لا يفرق بين غني وفقير، وعالم وجاهل:

يموت راعي الضأن في جهله موتة جالينوس في طبه

وجالينوس طبيب يوناني شهير كانت له مكانة عظيمة لدى الأطباء العرب القدامى، وهو هنا رمز للعلماء مقابل راعي الضأن الذي استخدمه المتنبي رمزا للبسطاء أو الجهلاء، او عموم الناس، ويقصد إلى أن يقول إن الموت لا يفرق بين عالم وجاهل.

وفي صفحة ١٠٩ أبيات للشريف الرضي في رثاء بعض أصدقائه، يصفه فيها بالشجاعة والفروسية فهو (حام وراع والقائد الخيل والمطعم) فإذا مات شخص بهذه الصفات استحق أن يقف الشاعر أمامه وقفة يخلد فيها وآثره ويبين عن بعض فضله. وهكذا فعل الشريف الرضي في هذه الأبيات.

وفي صفحة ١١٠ أبيات للشريف الرضي يتحدث فيها عن فكرة الموت.

ولأن الموت تجربة فردية جدا، والميت بعد ان يموت لا يمكن سؤاله عن كيف مات وما هو الموت وكيف عاناه ... الى آخر هذه الأسئلة الغريبة، وبالتالي يظل لغز الموت غامضا، فبرغم معرفتنا بالموت وحدوثه ومشاهدتنا لبعض أشخاص تموت أحيانا، إلا أن الموت مع ذلك شيء قام به غيرنا، وبالتالي فلا علم لنا بحقيقته، وإن كان عندنا علم من خلال المشاهدة.

غياب هذا البعد الفردي جعل الموت محل تأمل من العديد من المفكرين والمثقفين والشعراء، وهنا يقوم الشريف الرضي بهذا التأمل الفكري في مفهوم الموت، من خلال هذه الأبيات.

في صفحة ١١٢ أبيات لفيلسوف الشعراء وحكيم المعرة أبو العلاء المعري. والمعري شاعر مفكر ومتأمل عميق

التأمل، فلا تغره المظاهر ويحاول الوصول على الجوهر، وعند الجوهر يستوي الوجود والعدم والفرح والحزن، والحياة والموت، لأنها كلها من ضرورات الحياة، وبدون هذه الثنائيات تستحيل الحياة، فكما أن الولادة مهمة لاستمرار الحياة فإن الموت لا يقل أهمية عن الولادة، ولكن طبيعة الانسان الائتناس بما يعرفه ويرتاح إليه، وبالتالي يأسى ويحزن على ما يفقد.

وفي صفحة ١٠٤ أبيات للمعري في رثاء والده. وهي من نص شهير له، تبدأ الأبيات المختارة بهذا البيت:

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا، والعلم لله ذي المن

هذا معناه غموض الموقف، الذي استأثر الله سبحانه وحده بعلم الغيب، وبالتالي تنبني الحياة على غموض، لأنك لا تعلم ما سيحل بك بعد ساعة.